

قصد ايقاع التشبيه منه على شيء وان يكون فكر في « مثار النقع » من غير ان يكون اراد اضافة الاول إلى الثاني ، وفكر في « فوق رؤوسنا » من غير أن يكون قد أراد ان يضيف « فوق » إلى الرؤوس ، وفي الاسياف من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على « مثار » وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها ، وان يكون كذلك فكر في « الليل » من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً لـ « كأن » ، وفي « تهاوى كواكبه » من دون أن يكون أراد أن يجعل « تهاوى » فعلاً للكواكب ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه ؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله الا مراداً فيها هذه الاحكام والمعاني التي تراها فيها قال : « وليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون ان تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ومعنى القصد إلى معاني العلم ان تعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه . ومعلوم أنك ايها المتكلم لست تقصد ان تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها فلا تقول : « خرج زيد » لتعلمه معنى « خرج » في اللغة ومعنى « زيد » كيف ومحال ان تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ، ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاماً وكننت لو قلت « خرج » ولم تأت باسم ولا قدرت فيه ضمير الشيء أو قلت « زيد » ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تضمره في نفسك ، كان ذلك وصوتاً تصوته سواء » .

وقد وقف نفسه للدفاع عن النحو وتبيان خصائصه وارتباطه بنظم الكلام الذي بنى عليه نظريته . وأوضح فكرته بإيجاز في مدخل كتابه « دلائل الاعجاز » ثم فصلها ، قال : « هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة وكل ما به يكون النظم دفعة وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الامكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد يرى بها مشتماً قد ضم إلى معرق ومغرباً قد أخذ بيد مشرق . وقد دخلت بأخرة في كلام من أصغى اليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة دعاه إلى النظر في الكتاب الذي وضعناه وبعثه على طلب ما